

محاضرة المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن:

1-المدرسة الأمريكية والنقد الجديد:

ومن الاتجاهات النقدية التي تعارضت مواقعها النظرية والتطبيقية تعارضاً شديداً مع الاتجاه التاريخي في الأدب المقارن هو ما يسمى بالمدرسة الأمريكية التي لها علاقة وطيدة بالنقد الجديد . فقد حمل رينيه ويليك، وهو أبرز ممثلي هذا الاتجاه على دراسات التأثير وأسسها الفلسفية والنظرية وتطبيقاتها ودورها، وذلك في محاضرة تاريخية ألقاها عام 1958 في المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي انعقد في جامعة "تشابل-هيل" الأمريكية. لقد وجه ويليك إلى دراسات التأثير وإلى المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن نقداً لا مثيل له في حديثه، ونسف أسس تلك المدرسة ومركزاتها، حيث أخذ عليها أنها مثقلة من الناحية النظرية بأعباء فلسفات القرن التاسع عشر، كالنزعتين التاريخية والوضعية، وأنها تتعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية بعيداً عن الأدبية، ولا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص، أي مع جوهرها الفني والجمالي. وبهذه المناسبة ذكر ويليك زملاءه الفرنسيين التقليديين بأن العمل الأدبي "بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضاً عن المؤثرات التي قد تكون شكلت ذهنه.

إنّ العمل الأدبي يفقد أدبيته بمجرد أن يجرد من تلك البنية، وهذا هو ما تفعل دراسات التأثير التي تقفز فوق جوهر الأعمال الأدبية، أي فوق أدبيتها وجماليتها، وتتعامل معها كمجموعة من المؤثرات والوسائط الخارجية، مما حوّل تلك الدراسات إلى عمليات مسك دفاتر ثقافية تبيّن ما صدره أدب قومي إلى الآداب الأخرى وما استورده منها من مؤثرات.

إنّ الخلفية الحقيقية لذلك الصدام الذي جرى بين الاتجاه التاريخي (الفرنسي) في الأدب المقارن وبين "النقد الجديد" الذي مثله رينيه ويليك، ترجع في حقيقة الأمر إلى ذلك التحول الجذري في الأنموذج الذي شهده النقد الأدبي والدراسات الأدبية في أوائل هذا القرن، ألا وهو التحول في مقارنة النصوص الأدبية من المقاربات الخارجية إلى المقاربات الداخلية. إنه التحول الذي بدأه "الشكلاونيون الروس" وواصله "النقد الجديد" والبنوية والاتجاهات ما بعد البنوية، وهو تحوّل شكل منعطفاً حاداً في تاريخ الفكر النقدي في العالم.... فقد نقل مركز ثقل الدرس النقدي من العلاقات الخارجية للعمل الأدبي (أي علاقاته بشخصية الأديب وسيرته، وعلاقته بالبيئة الاجتماعية والثقافية..) إلى العلاقات الداخلية للعمل الأدبي، أي إلى بنيته الفنية والفكرية والجمالية. لقد جعل ذلك التحول في الأنموذج تاريخ الأدب في صورته القديمة أمراً غير ممكن. وكان النقد الجديد أحد التيارات

النقدية الحديثة التي تبنت ذلك الأنموذج الجديد وساهمت في صياغته. إنه أنموذج لا يولي العلاقات الخارجية للأدب كبير اهتمام، ويولي جل اهتمامه لأدبية الأدب، أي لتلك الخصائص التي تجعل منه أدبا. فاهمية أي مقارنة للأعمال الأدبية تكمن في مدى قدرتها على جعلنا نفهم الجوهر الأدبي لتلك الأعمال، أي قيمتها وبنيتها الأدبية، بصورة أفضل. أما دراسات التأثير والتأثر فهي لا تقرّ بنا من فهم جوهر النصوص الأدبية، بقدر ما تبعدنا عنه، وتدخلنا في متاهات المؤثرات والوسائط والعلاقات الخارجية. وبناء عليه رفض رينيه ويليك المنهج الفرنسي التقليدي في الأدب المقارن، ودعا إلى منهج يتعامل مع جوهر الأدب، أي إلى منهج نقدي في الأدب المقارن. إنه منهج بات يعرف "بالمدرسة الأمريكية" أو "المدرسة النقدية"، وهو منهج يدرس الظواهر الأدبية بصورة تتجاوز الحدود القومية لتلك الظواهر. فالظواهر الأدبية الرئيسية، من أجناس وتيارات أدبية، لم تكن في يوم من الأيام محصورة في أدب قومي واحد أو مقتصرة عليه، بل تتعداه إلى آداب قومية مختلفة، وكثيرا ما تكون عالمية. وعندما يدرسها المرء دراسة مقارنة فإنه لا يتصنع شيئا بل يدرسها في إطارها الطبيعي الصحيح.

إلا أن المدرسة الأمريكية لم تكتف بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب، بل تخطت ذلك إلى المطالبة بأن تفتح الدراسات المقارنة على نوع آخر من المقارنات، ألا وهو مقارنة الأدب بالفنون والعلوم وحقول المعرفة والوعي الإنساني الأخرى. فالفنون كالموسيقى والتصدير، هي ظاهرة جمالية تنطوي على أوجه تشابه كثيرة مع الأدب. ولذا فإن دراستها يمكن أن تقرّ بنا من فهم الأعمال الأدبية، ويمكن أن تؤدي مقارنتها بالأدب إلى الكشف عن جوهره. ليس المثل الأعلى للوحدة الفنية في العمل الأدبي مستمدا من الوحدة الفنية في الموسيقى والتصوير؟

ويمكن أن يقال عن علاقة الأدب بالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية الأخرى شيء مشابه. فهي علوم يمكن أن تقدّم مساعدة كبيرة في فهم الأعمال الأدبية وباختصار فإن جوهر الدراسة المقارنة للأدب من وجهة نظر "أمريكية"، يكمن في تقرّينا من فهم البنى الداخلية، أي الجمالية للأعمال الأدبية، لا في حصر ما تنطوي عليه تلك الأعمال من مؤثرات أجنبية، وما مارسته على الأعمال الأدبية الأجنبية من تأثير.

ترى ألا يؤدي ذلك إلى إذابة الأدب المقارن في النقد الأدبي وتمييع مضماره وتخومه كفرع من فروع الدراسة الأدبية، وإلى إفقاده خصوصيته كمنهج؟ إن رينيه ويليك لا يخشى اعتراضا كهذا. فالنقد الأدبي يجب أن يكون مقارنا، يتجاوز الحدود اللغوية والقومية للأدب، والأدب المقارن يجب أن يكون نقديا يقارب النصوص الأدبية كبنى جمالية، لا كمؤثرات ووسائط. عندئذ يصبح الأدب المقارن نقدا، ويصبح النقد أدبا مقارنا، وتزول تلك الحواجز المصطنعة التي أقيمت بين الأدب المقارن والنقد الأدبي. فالأدب يتجاوز بطبيعة الحال حدود اللغات، ولذلك لا يجوز أن يدرس إلا بصورة مقارنة. وهو بني وقيم جمالية، ولذلك لا يجوز أن يقارب إلا بصورة نقدية. إن الأدب المقارن الحق هو في جوهره نقد

أدبي، والنقد الأدبي الحقّ هو في جوهره أدب مقارن. وهكذا أعاد رينيه ويليّك اللحمة إلى علاقة الأدب المقارن بالنقد الأدبي، ووصل ما قطع بصورة تعسفية.

كان النقد الجذري الذي وجهه رينيه ويليّك إلى دراسات التأثير والتأثر وإلى ما يعرف بالمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن إيداناً بولادة مدرسة مقارنة جديدة، باتت تعرف بالمدرسة "الأمريكية". وفي الحقيقة فإنّ الحديث عن مدرسة "أمريكية" وأخرى "فرنسية" وثالثة "سلافية"، هو حديث غير صائب ومنافي للحقيقة. فالمدرسة الفرنسية هي في جوهرها وفلسفتها مدرسة تقوم على تاريخ الأدب، أي أنها مدرسة تاريخية أدبية، ولذلك من الأصحّ أن تسمى "مدرسة تاريخية". وما يعرف بالمدرسة السلافية هي اتجاه مقارن يستند إلى نظرية الأدب الماركسية، أي إلى المادية الجدلية، ولذا فمن الأصحّ أن تدعى "مدرسة مادية جدلية" أو ماركسية. أما المدرسة الأمريكية فهي تستمد أسسها من النقد الجديد، ومن الأنسب أن تسمى "مدرسة نقدية". كما لا بد من الإشارة إلى أنّ المنهج التاريخي ليس محصوراً في فرنسا، ولا المنهج النقدي في أمريكا ولا المنهج الماركسي في أوروبا الشرقية. فدراسات التأثير تمارس في كثير من الأقطار، خارج فرنسا، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية وأقطار أوروبا الشرقية. ومن الملاحظ أنّ ذلك النوع من الدراسات قد انحسر في فرنسا، وذلك بعد ظهور جيل جديد من المقارنين الفرنسيين الذين ناوا بأنفسهم عنه، حتى قبل أن تظهر المدرسة "الأمريكية" في الأدب المقارن. ومن أبرز هؤلاء "المنشقين" الفرنسيين رينيه إيتامبل الذي سبق أن تطرقنا إليه، والمقارنون: برونيل/ بيشوا/ روسو الذين وضعوا كتاباً حول الأدب المقارن ابتعدوا فيه عن مواقع "المدرسة التقليدية الفرنسية" وسعوا للتوفيق بين الاتجاهين التاريخي والنقدي. وقد حظي ذلك الكتاب باهتمام عالمي، واعتبر نقطة علام في تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة في فرنسا. وهناك بالمقابل العديد من المقارنين الأمريكيين الذين يواصلون ممارسة دراسات التأثير بالطريقة "الفرنسية" التقليدية، متجاهلين أنهم في بلد تُنسب إليه المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الأدب المقارن في أقطار أوروبا الشرقية "السلافية"، الاشتراكية سابقاً. فمنذ البداية لم ينحّ المقارنون الأوروبيون الشرقيون كلهم منحى ماركسياً أو مادياً جدلياً، وبعد أن أنهار النظام الاشتراكي في أقطارهم، لم يعد لديهم أيّ مسوّغ لمسايرة الاتجاه الماركسي ومجاراته. واليوم يضمّ الأدب المقارن في أوروبا الشرقية كل الاتجاهات والمناهج المقارنة، "فرنسية" و "أمريكية" و "ماركسية" وغيرها.

ملاحظة:

تم الاعتماد على مجموعة من المراجع أهمها:

- كتاب الأدب المقارن، عبدة عبود.

- رونه وليك: مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور.